

الزمن في قصائد المفضليات من منظور السرد

Time in the poems of favorites from a narrative perspective

عمر بوفاس*¹

جامعة محمد الصديق بن يحيى . جيجل (الجزائر)

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى التأكيد على الزمنية التي يتسم بها السرد، من حيث هو خطاب يتم فيه نقل الأفعال والأحداث المروية أو المكتوبة وتتبع أطوارها. والسرد من مفاهيمه أيضا القص، فهو عملية الحكيم أو عرض سلسلة من الأحداث في شكل أدبي، وجميع ما يقص يحصل في الزمن ويجري مجرى زمنيًا، وجميع ما يجري في الزمن يمكن أن يقص. وعليه فالسرد أو الحكيم هو في آن تمثيل للزمن كما يقول محمد ساري .

من هنا جاءت أهمية دراسة عنصر الزمان في النصوص الشعرية لديوان المفضليات وتقديم رؤية عن النظام الزمني كما قدمته إراءة الشاعر الجاهلي وطبيعة النص الشعري لأن البحث في عنصر الزمن يعني البحث في الطريقة التي قدم بها السارد الأحداث ورواها. فما هي هذه الطريقة ؟، وكيف تحدد اتجاه الزمن في القصص الشعرية التي تضمنها ديوان المفضليات؟
الكلمات المفتاحية: سرد، قص، حكي، زمن، شعر، المفضل الضبي.

Abstract:

This article aims to emphasize the temporality of the narrative, in terms of which it is a speech in which narrated or written actions and events are conveyed and their frames are traced. The narrative of his concepts is also storytelling, it is the process of telling or presenting a series of events in a literary form, and all that is told gets into time and being chronologically, and all that is going on in time can be told. Therefore, a narrative or a story is at the same time a representation of time, as Muhammad sari says.

Hence the importance of studying the element of time in the poetic texts of the divan of preferences and providing a vision of the temporal system as provided by the Erwa of the ignorant poet and the nature of the poetic text, because researching the element of time means researching the way the narrator presented and narrated events. So what is this method And how to determine the direction of time in the poetic stories contained in the Dewan of favorites

Keywords: Narration, storytelling, storytelling, time, poetry, favorite foggy.

مقدمة:

من بين المفاهيم التي أطلقت على مصطلح السرد أنه « خطاب شفوي أو مكتوب يتميز بزمنية مدلوله واتسامه بالمآل»¹.

وما يهمننا في هذا القول، هو التأكيد على الزمنية التي يتسم بها السرد، من حيث هو خطاب يتم فيه نقل الأفعال و الأحداث المروية أو المكتوبة وتتبع أطوارها. والسرد من مفاهيمه أيضا القص، فهو عملية الحكيم أو عرض سلسلة من الأحداث في شكل أدبي، وجميع ما يقص يحصل في الزمن و يجري مجرى زمنا، و جميع ما يجري في الزمن يمكن ان يقص. وعليه « ففعل إنشاء سرد ما أو روي حكاية ما، هو في آن تمثيل للزمن»².

من هنا جاءت أهمية دراسة عنصر الزمان في النصوص الشعرية لديوان المفضليات وتقديم رؤية عن النظام الزمني كما قدمته إراءة الشاعر الجاهلي وطبيعة النص الشعري لأن البحث في عنصر الزمن يعني البحث في الطريقة التي قدم بها السارد الأحداث ورواها. فما هي هذه الطريقة؟ وكيف تحدد اتجاه الزمن في القصص الشعرية التي تضمنها ديوان المفضليات؟

1. الاتجاه الزمني الهابط:

يتحدد مفهوم الزمن الهابط عندما « تأخذ الأحداث مجراها في الزمن الحاضر الذي يعود إلى الوراء فتتبع الأحداث نسقا زمنيا هابطا»³ إلى الوراء كاشفة عن حياة الشخصيات وتجاربها الذاتية في الماضي. وتعبير آخر هو: «اللاحقة الخارجية، التي تكون نقطة الرجوع فيها خارجة عن الزمن القصصي أي سابقة له، أي التي يكون فيها الارتداد إلى نقطة زمنية تقع قبل النقطة التي انطلقت منها أحداث المغامرة»⁴.

إن ما يسترعي النظر في بعض المقدمات في ديوان المفضليات كالمقدمة الغزلية ومقدمة الشيب والشباب والمقدمة الطللية، هو حضور التحديد الزمني للحظة السرد، اللحظة التي دفعت الشاعر إلى استرجاع الأحداث التي عاشها في ماضيه، وكونت البنية السردية لهذه المقدمات.

يا من لقلب شديد الهم محزون أمسى تذكر ريا أم هارون

أمسى تذكرها من بعد ما شحطتوالدهر ذو غفلة حيناً وذو لين

فإن يكن حبها أمسى لنا شجنا وأصبح الوأي منها لا يؤاتيني

فقد غنيا وشمل الدهر يجمعنا أطيع ريا وريا لا تعاصيني

ترمي الوشاة فلا تخطي مقاتلهم صادق من صفاء الود مكنون⁵

هذا النمط القصصي الذي عرضه الشاعر في هذه المقدمة الغزلية، والتي يتجلى حضور المرأة فيها محورا أساسيا، ازدحمت من حولها العناصر القصصية الأخرى: الشخصيات، الحدث، الزمان. هذا العنصر الأخير (الزمان) يظهر من

خلال التحولات التي شهدتها الأحداث، والذي يجليه الاستخدام الواضح للأفعال. حيث ينطلق الشاعر من رصد حالته الشعورية الحزينة المهمومة، وبيان سبب ذلك (التذكر لريا)، وهو قالب زمني ليس محددًا بدقة، لكنه يؤطر وينم عن الزمان في الحاضر، تشي بذلك العلامات النصية (أمسى تذكر ريا، وأمسى تذكرها، وأصبح الوأي). وما نلاحظه، تكرار فعل التذكر تأكيدًا لحضور ذكرى الحبيبة في نفسه، وأثر هذه الذكرى عليه. إذ يصبح هذا التكرار دالًا على الشحنة الشعورية والانفعالية لهذه الذكرى عليه وتأكيدها في نفسه.

ثم لا يلبث الشاعر أن ينتقل عبر الحدث في نسق زمني هابط (راجع) يستغل فيه الموقف لاستدعاء وتذكر ما كان بينه وبين ريا، منصرفًا من الحاضر إلى الماضي كما يؤكد الفعل (غنيًا) المسبوق بقد، والدال على انتهاء حدوث الفعل في الزمن الماضي.

فقد غنيًا وشمل الدهر يجمعنا أطيع ريا و ريا لا تعاصيني⁶

وهي صورة تقابل وتناقض تمامًا حاضر وراهن علاقة الشاعر بريا، الدالة على الانفصال كما يقدمها السرد الذي ينمي القصة، عندما يستمر الشاعر في عرض الحدث بلا توقف عن طريق تقنية الاسترجاع. هذه التقنية التي اتخذها الشاعر وسيلة لأدائه القصصي في المقطع السابق، سمحت بكشف قدرة الشاعر على ربط أجزاء الموقف النفسي كما أراد تصويره في إطار النسق القصصي. حيث تتكسر خطية الزمن دون أن يفلت من أحداث القصة بشيء. وهو ما يكفي لتسجيل ذلك التوحد العضوي في هذه الأبيات. وهو توحد يهيمن عليه هنا عامل الزمن، ففي الزمن الماضي الذي يجسده فعل التذكر تسترجع الذات شيئًا من قوتها لتخرج من عالم الذكرى إلى عالم إنجاز الحركة والحياة.

وفي إطار تقنية الزمان وعلى أسلوب الاسترجاع والتذكر، يعيد الشاعر تركيب الوقائع وترتيب الأحداث وفق منظوره الخاص. وتحت ارتجاج الوجدان والإحساس الأليم تجاه ذاته في مرحلة الشيخوخة، وتجاه موقف المحبوبة التي أنكرته وصدت عنه لما رأت علامات الشيخوخة قد بدت عليه، فقد ابيض شعره وانحنى ظهره. هذه الحالة تمثل لحظة الحاضر الذي ابتداءً منه الشاعر في عرض قصة الشيب والشباب، كما تدل عليه الملفوظات الصريحة الدالة على الزمن: (اليوم) و الفعل المضارع (تري) والكنائية (شيخا، سبا) من قصيدة الشاعر المزار بن منقذ.

عجب خولة إذ تنكرني أم رأيت خولت شيخا قد كبر

وكساه الدهر سبا ناصعا وتحنى الظهر منه فأطمر

إن ترى شيبا فإني ماجد ذو بلاء حسن غير غمر

ما أنا اليوم على شيء مضى يا ابنة الأقوام تولى بحسر⁷

ولا يتوقف الشاعر عند رصد حالته الشعورية المهتزة من موقف خولة التي أنكرته، وإنما راح ينمي الأداء القصصي عن طريق عنصر الحوار الذي يجليه خطابه باللمح لخولة عن طريق الصورة الكنائية (يا ابنة الأقوام) ناقلاً زمن الحدث من الحاضر إلى الماضي، كما يظهر في عبارة (على شيء مضى. تولى) وصياغة أكدت أسلوب الحكيم وكشفت عن ماضي الشاعر الماجد، دل على ذلك إيقاع الأفعال التي يوجه فيها الشاعر أسلوب القص إلى عرض المواقف الغزلية والبطولية في الماضي زمن الشباب والقوة كما يقول الشاعر المزارع بن منقذ:

قد لبست الدهر من أفنائه كل فن حسن منه حبر

وتعللت وبالي ناعم بغزال أحور العينين غر

وتبطنت مجوداً عازباً واكف الكوكب ذا نور ثمر⁸

واضح من الأبيات أنها تدل على بنية فعلية تدل على الزمن بدلالة الماضي المنتهي (قد لبست، وتعللت، وتبطنت) رصدها الشاعر في إطار إظهار ما كان عليه في الماضي لمواجهة الحاضر الذي دلت عليه بنية الفعل المضارع (إن تري) و ظرف الزمان الحاضر في كلمة (اليوم) والصفات التي حدد بها الشاعر عمره (شيخاً، شيباً). والتي من خلالها استطاع الشاعر أن يوهم بواقعية ما يرويها.

إن الشاعر، في ترديد ذكريات الماضي على لغة الاسترجاع، عندما قدم أفعالا وأحداثاً وإنجازات قد شكل في حقيقة الأمر رؤية خاصة به في إطار من التصور النفسي والعقلي. قدمها عن ذاته وموقفها من فترتين زمانيتين في حياتها؛ زمن الشيخوخة وإحساسه الفظيع به، وزمن الشباب وآثاره الجميلة فيه.

وبهذا تغدو هذه الاسترجاعات في هذا النوع من القصص الذاتي إحالات داخلية؛ ففي غمرة الإحساس بالانكسار أمام وطأة الزمن وهجرة الحبيبة وصدودها في مرحلة الشيخوخة، يتكئ الشاعر على الذاكرة و يسارع إلى استدعاء و استرجاع الأحداث الجميلة من فترة الشباب كي يمنح بؤرة النص أبعاداً تتحرك باتجاه الماضي لتحفز مخيلة المتلقي على استكناه رؤى "أنا" الشاعر.

وبذلك فقد استطاعت "تقنية الاسترجاع" في هذا النوع من النص الشعري الذاتي في ديوان المفضليات أن تؤصل لموقف و تجربة ذاتية. و تعرض قصة حياة الشاعر كما عاشها بأفراحها و مسراتها أو أحزانها و صخبها و سكوتها كتجربة معيشة واقعية و متخيلة في الآن نفسه. و هو ما نجده في المقدمات الطللية التي يبدو فيها عنصر الزمان مشكلاً أساسياً في بنيتها القصصية، يتضافر مع العناصر الأخرى. المكان و الشخصيات والحدث كما يتبدى في قول المخبل السعدي:

ذكر الرباب و ذكرها سقم فصبا، و ليس لمن صبا حلم

و إذا ألم خيالها طرفت عيني، فماء شؤونها سجم

كاللؤلؤ المسجور أغفل في سلك النظام فخانهُ النظم
و أرى لها داراً بأغدره ال سيدان لم يدرس لها رسم
إلا رمادا هامدا دفعت عنه الرياح خوالد سحم
و بقية النوى الذي رفعت أعضاده فثوى له جذم
فكأن ما أبقى البوارح و ا أمطار من عرصاتها الوشم
تقرو بها البقر المسارب وا تلطت بها الآرام والأدم
و كأن أطلاء الجآذر و ال غزلان حول رسومها البهم
و لقد تحل بها الرباب لها سلف يفل عدوها فخم
بردية سبق النعيم بها أقرانها و غلا بها عظم
وتريك وجها كالصحيفة لا ظمان مختلج و لا جهم⁹

يفلح أسلوب القص في أن يعكس أزمة الشاعر و معاناته في اتصاله بالمكان الذي يبدو البناء القصصي لصيقا به في هذا المشهد الطللي. فالسارد قد نجح نجاحا فنيا في صياغة البنية السردية بالاتكاء على عنصر المكان، حيث تتحرك الشخصيات و تنجز الأفعال و الأحداث، وعنصر الزمان الذي حكمه منطق الاسترجاع فتكسرت خطيته بانتقال الشخصية البطلة من الحاضر إلى الماضي.

لقد شكل فعل التذكر الذي استهل به الشاعر هذا المشهد الطللي (ذكر الرباب) بؤرة حدثية، سجلت انتقال النص من بؤرة الزمن الحاضر إلى بؤرة الزمن الماضي. فالقصة تبدأ بموقف يبدو فيه البطل و هو يبكي بسبب ما حل بالمكان الذي مر به فذكره حبيبته وأثار فيه موجع استجابات لها دموعه وأربكت وجوده لما رأى فيه من أجواء موحشة اقترنت به. وانفتح على فضاء تملؤه صور الخراب و الدمار. حيث ترهص الألفاظ (رمادا هامدا، دفعت عنه الرياح خوالد سحم، بقية النوى...) إلى فضاء مرهص بحركة مدمرة شهدها المكان.

والشاعر إذ يؤكد على عناصر ومكونات هذا الطلل؛ الأثافي، وبقية النوى والعرصات. « فلكي يعبر عن رغبته في التجربة السالفة التي عاشها في هذا المكان أو بالماضي و ما يتميز به من نقاء و متعة و لقاء، و الحاضر الذي يناقضه من خلال تجسيده زمن التدمير الحاضر في كل فضاء الطلل برموزه المتنوعة التي تعمل على إقصاء قوى المتعة التي صنعتها الذاكرة»¹⁰.

لقد عرض توالي الاحداث في قصة الطلل وحرص على ترتيبها في ظل هذا السياق والمسار الذي تكسرت خطية الزمن فيه، حيث قامت الذات الساردة عبر حدث فعل التذكر حكاية قصة حياتها و ما جرى فيها من أحداث، من

خلال إطار المكان الذي احتوى الأحداث، والزمان الذي شغل نفس الحيز على مستوى تحريك الأحداث. و عبر إطار الزمن توزعت ذات الشاعر بين الزمن الحاضر و سطوته، و الزمن الماضي الجميل الذي قصد « إلى استرجاعه أو إعمال تلك الذاكرة الفاعلة في رصد وقائع الماضي و تسجيلها»¹¹ كما جسدتها مكونات النؤي، و الأثافي و العرصات. وهكذا يتضافر عنصر الزمان مع المكان في المقدمة الطللية و يصبح من خلال تقنية الاسترجاع « الرقيب الأول على حركة الحدث»¹² في القصيدة أو ترتيب الأحداث في القصة.

2. الاتجاه الزمني الصاعد:

« في هذا الاتجاه يمتد ترتيب الأحداث من الحاضر إلى المستقبل فيتبع نسقا زمنيا حيث يرتب السارد الأحداث ترتيبا زمنيا متناميا متصاعدا»¹³ تبدأ القصة عادة فيه بموضع البطل في إطار معين ثم يأخذ السارد في الحديث عنه منذ مرحلة معينة من حياته أو من نشاطه. وفي هذا النسق الزمني يبني التأزم الدرامي شيئا فشيئا من خلال تصوير الآمال و رغبات الشخصية البطلية والعقبات التي تعترض طريقها في سعيها لتحقيق ما ترغب و تأمل فيه.

وهذا النظام الزمني الذي ترد عليه الأحداث في ترتيبها الزمني التصاعدي يتسم بالخطية. و هي سمة تحكمها إرادة السارد و الاعتبار التي خضع إليها زمن السرد. إن الخطية في نظام الزمن تعني « أن الأعمال إنما تجري وفق قوانين الحياة و الزمن أي متتالية الأطوار في القصة الواحدة»¹⁴.

ولعل ما يهمنا في هذا القول على وجه الخصوص الترتيب السردى للأحداث في هذا النوع من القص، و تلازمه مع الترتيب الواقعي المنطقي لها؛ فالحكاية في القصة هنا، هي سلسلة من الأحداث المتتابعة تحكمها في الغالب علاقة سببية. و فيها يكون تعامل السارد مع الزمان على مستوى النص، باعتبار أن القصة عامة مادتها الأساسية هي الأحداث و الأفعال التي تقوم بها الشخصيات ذلك أن «جميع ما يقص يحصل في الزمن، و يجري مجرى زمنيا، وجميع ما يجري في الزمن يمكن أن يقص»¹⁵.

تتجلى هذه البنية الزمنية في العديد من قصائد ديوان المفضليات التي تضمنت صور الحياة الواقعية و الطبيعية و عكست في بنائها نماذج متنوعة للقص الشعري، كما تظهره قصة الضيافة العربية في المفضلية 23 للشاعر عمرو بن الأهتم المنقري.

ومستنبح بعد الهدوء دعوته وقد حان من نجم الشتاء خفوق

يعالج عرنينا من الليل باردا تلف رياح ثوبه و بروق

تألق في عين من المزن وادق له هيدب داني السحاب دقوق

أضفت فلم أفحش عليه و لم أقل لأحرمة: إن المكان مضيق

فقلت له: أهلا و سهلا و مرحبا فهذا صبح رهن و صديق
 وقمت إلى البرك المواجد فاتقت مقاحيد كوم كالمجادل روق
 بأدماء مرباع النتاج كأنها إذا عرضت دون العشار فنيق
 بضربة ساق أو بنجلاء ثرة لها من أمام المنكبين فتيق
 وقام إليها الجازران فأوفدا يطيران عنها الجلد و هي تفوق
 فجر إلينا ضرعها و سنامها وأزهر يحبو للقيام عتيق
 بغير جلا بالسيف عنه غشاءه أخ بإخاء الصالحين رفيق
 فبات لنا منها وللضيف موهنا شواء سمين زاهق وغبوق
 وبات له دون الصبا وهي قرّة لحاف ومصقول الكساء رقيق¹⁶

إن المنطق السردى في هذه القصة هو منطق الاستتباع الزمني. فالأفعال والأحداث تتابع تتابعا نسقيا غالبا ما يكون سببيا أو زمنيا. يبدو هذا التتابع شديد الوضوح منذ أن بدأ الشاعر حديثه عن المستنبح، حيث يعرض السارد توالي الأحداث في القصة و يحرص على مسارها المتنامي. هذا التنامي الذي اقتضاه منطق الأفعال (أضفت، فقلت، و قمت، و قام، فأوفدا، فجر، فبات) والذي دلت عليه أدوات العطف والاستئناف (الواو، والفاء) التي تدل على حرص الشاعر/السارد على ترتيب الأحداث في إطار هذا السياق الدقيق.

وقد ساعدنا هذا النسق السردى و اعتماده داخل القصيدة في تركيز الحكى أو السرد على بؤرة حدث الضيافة العام أو الكرم العربى، أو أحداث رئيسية في نسق متنام عندما تتابع الأحداث وتتوالى وفق منطق تعاقبي، يسير بها السارد في اتجاه تصاعدي؛ (قدوم الضيف ليلا، استقبال المضيف له، نحره الناقة، إعداد الطعام له، أكل الشواء، ثم النوم). ومما تجدر الإشارة إليه في هذه القصة، تحديد الزمن الذي حصل فيه فعل الضيافة أو الحدث داخل المغامرة، حيث ربطه السارد/الشاعر بطور من أطوار الزمن الطبيعي، و مرحلة من مراحل اليوم، فالأحداث التي وقعت يغلفها زمن الليل (بعد الهدوء، يعالج عرنينا من الليل)، و بفصل الشتاء عندما أشار إلى هذا الفصل (وقد حان من نجم الشتاء خفوق). ولعل في هذا التوظيف للزمن بصورته التعاقبية عندما أكد الشاعر على مظهره من خلال الزمن اللغوي للأفعال من جهة، وصورته الطبيعية عندما أحال إلى إطار هذه الأحداث بليلة من ليلى الشتاء الباردة ما يبرز القيمة الجمالية و الدلالية لعل أبرزها الإيهام بواقعية السرد « والكشف عن أحاسيس الشخصية وعواطفها من خلال ربط عالم الإنسان بعالم الطبيعة»¹⁷. وبذلك يصبح الزمن الطبيعي ليس مجرد إطار للأحداث وإنما موضوعا « فالزمن لا يقدم أحيانا فقط كزمن لجريان الأحداث و إنما يقدم كقيمة مركزية أو كهاجس يختزل فيه كل هواجس الشخصية »¹⁸.

كذلك، تتجلى هذه البنية الزمنية في القصائد التي تضمنت قصص الحيوان الوحشي، والتي حكمها نظام زمني جرت فيه الأحداث وفق منطق الزمن و قوانين الحياة. فقد توالى الأحداث في هذه القصص و توالى معها الأبطال و المراحل بشكل تصاعدي، كما أظهرت ذلك العلامات الزمنية التي ربطت في غالبيتها زمن الأحداث بطور من أطوار الزمن الطبيعي (الربيع، الصيف) (الليل، الصباح) (النهار، المساء، الليل). ومرجع هذه الطريقة في سرد هذه القصص يعود إلى العلاقة السببية التي تحكم بناء الأفعال و الأحداث و التي يمكن اختصارها في مقاطع أفقية يبينها الجدول التالي:

يتجلى الترتيب الزمني في هذه القصص بوضوح كما تظهرها المقاطع التي تعكس التطور في مشاهد القصة ونموها المتعاقب في خط الزمن . كما تتجلى العلاقة السببية التي تحكم أفعال الشخصيات والأحداث فيها .

ففي قصة الحمار الوحشي يظهر التعاقب الزمني أولاً بناء على التحديد الطبيعي في انتقال الأحداث التي تقوم بها الشخصيات من فصل الربيع إلى الصيف. وعادة ما يكون هذا الانتقال بالدالة اللغوية (حتى) وهي قرينة تدل على اتساع المدة الزمنية التي تشغلها الأحداث في القصة، أي أن الزمن الذي عاشه الحمار الوحشي مع أتانة زمن طويل.وب(حتى) وصل الشاعر نهاية المقطع الأول ببداية المقطع الثاني كما جاء في قصيدة متمم بن نويرة :

ويضل مرتبئاً عليها جادلاً في رأس مرقبة ولأيا يرتع
حتي يهيجها عشية خمسها للورد جأب خلفها مترع¹⁹

أو كما ورد في قصيدة أبي ذؤيب الهذلي :

حتي إذا جزرت مياه رزونه وبأي حين ملاوة تتقطع²⁰

في هذا المقطع الثاني تستنبط دلالة تغير الزمن من الربيع إلى الصيف، من خلال الإشارة إلى المدة الزمنية التي لم يشرب فيها هذا الحمار مع أتانة (عشية خمسها) أي خمسة أيام، أو من خلال تسجيل المكان وقد نضبت و غارت به المياه(حتي إذا جزرت مياه رزونه). كذلك تظهر بعض الإشارات الزمنية التي تحدد وقت الوصول إلى موارد الماء المنتقل إليها كما في قول الشاعر ربيعة بن مقروم:

فاوردها مع ضوء الصباح شرائع تطحر عنها الجميما
طوامي خضرا كلون السماء يزين الداراي بها النجوم²¹

فالزمن هو بداية طلوع النهار، فقد أوردها (مع ضوء الصباح) والنجوم مازالت تزين لون السماء ،ولعل ما يلفت الانتباه هنا تحديد الوقت من خلال انعكاس صورة السماء بنجومها الزاهية على صفحة الماء. فالزمن تحدد مرة بالإشارة إلى مرحلة من مراحل اليوم، ومرة من خلال الوصف الدقيق لانعكاس ضوء النجوم على صفحة الماء.

وإذا كنا، مما سبق، قد لاحظنا مظهر التغير في الأحداث والأفعال التي تقوم بها الشخصيات في المقاطع السابقة فإن التبرير السببي لها واضح، عندما تفسر هذه الأفعال والأحداث المنجزة على مساحة القصة. فحدث الانتقال دافعه نضوب الماء، ونضوب الماء مبرر بوقت الصيف . ومن ثم جاء الانتقال إلى المقطع الثالث، حيث يتحدد زمن الوصول إلى أماكن الماء (الليل وتحديدًا الجزء الأخير منه الفجر) . وهو زمن طبيعي واضح كما أسلفنا . لكن السارد في هذا المقطع يظهر اهتمامه متجهاً إلى رصد حالة الخطر الذي يترصد الحمار وأتانه في المكان الجديد، من خلال صورة شخصية القانص الذي يتطلع إلى طريدته ورميها بسهامه .

والملاحظ في هذا المقطع ، أن النهاية ليست واحدة في جميع القصائد التي تتناول قصة الحمار الوحشي . فهي في بعضها مجانبية السهم الحمار و أتانه ونجاحهما، وهي في بعضها الآخر إصابة القانص لبعض الطرائد و سقوط واحدة من الحمر أو بعض منها. وهو ما يعطي لهذه القصص دلالات مختلفة يبررها دافع السرد له، الذي يرتبط بنفسية الشاعر ووجدانه؛ فتأتي بها الهزيمة و الموت في قصائد الرثاء، عندما يقف الإنسان مقهوراً عاجزاً أمام نوائب الدهر و مصائبه. و نهاية الانتصار و النجاة في قصائد الفخر عندما تصبح شخصية البطل موازية للإنسان القائد الذي يستطيع أن يحمي قبيلته و يجد لها المخارج من المواقف الصعبة التي تواجهها .

أما إذا رجعنا إلى قصة الثور الوحشي، فإننا لا نجد لها تبعد كثيراً عن قصة الحمار الوحشي، فالعلاقة السببية ومنطق السرد الصاعد المتنامي تظهر في توالي الأفعال والأحداث وترابطها زمنياً من خلال التعاقب والترتيب لها في خط زمني تصاعدي، يبدأ من الليل والانتقال إلى الصباح، حيث يركز المشهد هنا وصف الثور الوحشي الخائف، ثم يبرر الشاعر مخاوف الثور عندما يصف الصياد وكلاهما في وقت الصباح، ليتوالى الحدث في علاقته السببية عندما يصور السارد مشهد عراك الثور مع الكلاب وفي الأخير نهاية المعركة، الانتصار والفرار مزهواً، أو السقوط بسهم من سهام القانص . لكن ما تجدر ملاحظته في هذه القصة على مستوى المدى الزمني الذي ينتظم الأحداث، تقلص الزمن الطبيعي، عندما ترتبط الأحداث بفترة محددة من اليوم (الليل وتحديدًا الصباح) على عكس قصة الحمار الوحشي الذي امتد فيه الزمان إلى فصلين كاملين.

أما قصة الظليم، فإن المدى الزمني الذي تدور فيه الأحداث واضح من خلال القرائن اللغوية و الإشارات النصية التي تنم عن اتجاه الزمن الصاعد. فترتيب الأحداث والأفعال التي تقوم بها الشخصيات تحكمها العلاقة السببية عندما تبرز أفعال الشخصيات. فالحدث البداية في هذه القصة النقاط الظليم و النعامة حب النبات طيلة اليوم أو في وقت النهار، مجيء وقت المساء وتذكر النعامة لبيضها يبرر العودة إلى العش، الإسراع في العودة يبرر حدث الوصول مع بداية الظلام،

وحدث الوصول يبرر احتضان النعامة للبيض، فالزمان الطبيعي: النهار، المساء وقت غروب الشمس(ألقت ذكاء يمينها في كافر)(تروحا أصلا)(بداية الليل فبنت عليه مع الظلام)، يقول الشاعر ثعلبة بن صعيبر بن خزاعي المازني:

وكأن عيبتها وفضل فتانها فنان من كنفي ظليم نافر
يبري لرائحة يساقط ريشها مر النجاء سقاط ليف الإبر
فتذكرت ثقلا رثيدا بعدما ألقت ذكاء يمينها في كافر
طرفت مرادها وغرد سقباها بالآء والحدج الرواء الحادر
فتروحا أصلا بشد مهذب ثر كشؤبوب العشي الماطر
فبنت عليه مع الظلام خباءها كالأحمسية في النصف الحاسر²²

وهكذا تنمو الأحداث في القصة متصاعدة من مرحلة إلى أخرى لتشغل مدى زمنا مدته النهار وبدايته الليل. عندما تتوزع أفعال الشخصيات فيه على مراحل اليوم المختلفة المتعاقبة؛ النهار، المساء، بداية الليل.

3. الخاتمة:

يقودنا تحليل عنصر الزمن في القص الشعري لديوان المفضليات إلى النتائج التالية:

الزمن عنصر أساسي في القص الشعري لديوان المفضليات يؤثر مع عنصر المكان حركة الشخصيات وتطور الأحداث داخل القصة. وأنه ينبنى بطريقتين مختلفتين: تقوم الأولى على "تقنية الاسترجاع" في القص الشعري الذاتي، كما تعكسه قصة الغزل، الشيب والشباب، وقصة الأطلال، في مقدمات بعض القصائد. وأن الاسترجاع يجسد تكسر خطية الزمن عبر حدث فعل التذكر. فالشاعر يبدأ قصته في هذه المقدمات من الزمن الحاضر لحظة السرد ثم يتكئ على الذاكرة التي تلعب دورا في خلق الأمكنة والشخوص والعوالم والأشياء ورصد الأحداث وتسجيل تجارب الشباب، الماضية.

أما في قصص الحيوان الوحشي، فإن مسار الزمن يأخذ بعدا مغايرا لقصص السرد الذاتي في المقدمات، حيث يرتب الشاعر الأحداث في نسق تعاقبي إلى الأمام. كذلك ارتبطت الأحداث في هذه القصص في غالبيتها بطور من أطوار الزمن الطبيعي، حيث كثرت الإحالات اللغوية إلى الفصول الطبيعية، (الربيع والصيف) ومراحل اليوم المختلفة (الليل، الصباح، النهار).

ومما خلصت إليه الدراسة أيضا، أن التوظيف الزمني في هذه القصص كانت له قيم جمالية لعل أبرزها الإرهاص والكشف عن الأحاسيس الذاتية التي تعيشها الشخصية، والإيهام بواقعية ما روي من أحداث وأوقات في هذه القصص الشعرية.

4. الهوامش والإحالات:

- ¹ نقلا عن الصادق قسومة: طرائق تحليل القصة، دار الجنوب، تونس، ص 114.
- ² محمد ساري، نظرية السرد الحديثة، مجلة السرديات، جامعة قسنطينة، عدد 1، جانفي 2004 ص 24.
- ³ خليل رزق، تحولات الحكبة، مؤسسة الأشرف والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط 1، 1998، ص 70.
- ⁴ الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ص 118.
- ⁵ المفضل بن محمد الضبي، المفضليات، تحقيق قصي الحسين، ص 94، 95.
- ⁶ نفسه، ص 95.
- ⁷ نفسه، ص 47، 48.
- ⁸ نفسه ص 48.
- ⁹ نفسه ص 66، 47.
- ¹⁰ محمد مسكين، الخطاب الشعري الجاهلي رؤية جديدة، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب ط 1، 2005.
- ¹¹ مي يوسف خليف، بطولة الشاعر الجاهلي وأثرها في الأداء القصصي، دار قباء للنشر والتوزيع، ص 139.
- ¹² نفسه، ص 139.
- ¹³ خليل رزق، تحولات الحكبة، ص 69.
- ¹⁴ الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ص 115.
- ¹⁵ نفسه، ص 37.
- ¹⁶ المفضل الضبي، المفضليات، ص 75، 76.
- ¹⁷ الصادق قسومة، طرائق تحليل القصة، ص 49.
- ¹⁸ سعيد يقطين، الخطاب الروائي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع ط 3، 1997 ص 166.
- ¹⁹ المفضل الضبي، المفضليات، ص 30.
- ²⁰ نفسه، ص 240.
- ²¹ نفسه، ص 106.
- ²² نفسه، ص 75، 76.